صورة :

الذي له صومعة . . .

للاستاذ راشد رستم

هذا هو صباح العادي في الصيف : خضرة وسكون وطير . ولست أقصد إلى المقارنة ، فالأسكندرية اليوم ، رمل وبحر « وسمك » ... كلاهما جميل ، وكلاهما وفقاً للمزاج يختلفان . وحبذا في هذه الحياة مزاج الوفاق وتوافق المزاج .

وإني إذ أجلس وحيداً في هذا الصباح الهادىء اللطيف ، أذكر صاحبي هناك والدنيا حوله تفور وتصخب ، وهو هو كما أعهده قابعاً في صومعته مفكراً راضياً ساخراً ...

وإنها للذة أن يقنع المرء نفسه بصومعة ينطوي عليها وتنطوي عليه ، فهي في الحق نظرية عملية ، إذا استطاعها امرؤ فبشره بالفوز العظيم في معترك الجهاد الأكبر ، إذ هي وحقيقة الحياة تسيران جنباً إلى جنب ، والمرء فيها كالقطرة في النهر ، لها وحدتها ، ولكنها تجري وماء النهر من المنبع إلى المصب ...

* * *

وهذا الذي يرونه فيلسوفاً ساخراً ، ما هو إلا روح هادىء قانع قابع ، لا قانط ولا ساخط ، قد عرف الأشياء وعرفته ، وجرب الحوادث وجربته ، وسار مع الأيام وسيرته ، ثم ارتفع بروحه إلى سموات التأمل والتفكير ، مصطحباً الحس والشعور ، حتى لا يضيع بين الوهم والغرور ، وقد طوف في تلك الأرجاء مع القديم من الأحياء والجديد من الآراء ، ثم عاد وفي نفسه أن ينظر ويرى .

فماذا يرى ؟ — يرى أن يحتفظ بذاته ، منفرداً غير وحيد ، مبتعداً غير بعيد ، فتحول بينه وبين ما يريد « جاذبية » الأم الحنون — هذه الأرض التي خلق منها ، ولا أقول خلق « فيها » فقد يخلق الشيء من شيء ويوضع في شيء ، فلا يستطيع البقاء مع الشيء الذي وضع فيه ، ويرتد إلى الشيء الذي خلق منه . وقد يكون المرء في هذا غير فاهم ما يحصل له ، وهو إذن في جهل ونعيم .

وقد يكون فاهماً ما يحصل له ، وهو إذن في علم وشقاء ...

* * *

وهذا آدم أبو البشر بل رمز البشر ، وقعت له الوقعتين ، فجهل الأولى وعرف الثانية . عرف أنه من التراب وإلى التراب يعود . ومن ينبه الذي يدرك ما هو فيه ، هو المعذب في الحياة ، يقاسيها لأنه يعلم إنه لا مفر له منها . ويعانيها لأنها تعنيه ...

إذن ماذا يستطيع هذا أن يفعل غير أن ينفر ويسخر ثم يقنع ويقبع . يعيش مع نفسه وفي نفسه وإن لم يكن لنفسه ، يرجو أن يعيش وفق خطته وهواه ، وأن لا يزاحمه أحد في « دنياه » ، وهو بعد ليس بالأناني ، يحب نفسه ويكره سواه ، ولكنه الإنسان ، يمنع الشر عن أي أحد ، ويتمنى الخير لكل أحد ، ويرجو ألا يصيبه الشر من أحد ، حتى ولو لم ينله الخير من أحد ... هذا تفكيره ، فهل هكذا مصيره ؟

* * *

يعيش هكذا في « دنياه » ، معتزاً بروحه ورضاه ، معتزلا غير منعزل ، لا يهمل كما لا يحفل برأي الناس فيه ، ولا يعني بما ليس يعنيه ...

غير أن الأيام وقد ظن أنها كفلته وأمنته تأتي فتمرضه وتشفيه ، فيملم مداه من اليأس والبأس والناس ، فيأنس دون أن يبتئس أو ييأس .

ثم تعود فتفقده عزيزاً غالياً ، فينتبه من تيه ، ويرى شيئاً لم يكن يرتقبه ، يحس بأن المصير ، هو غير ما كان عليه التفكير ؛ ويأخذه الذهول ، وكأنه يرضيه أو أنه قد يشفيه مما صار فيه ، ولكنه يحس دبيب الأسى يوقظه ، ويحركه ويدفعه ، فيمشي يتلمس في الوجود ، الموجود والمفقود ، لا والد ولا مولود ، يفتقد صاحبه فلا يجده ، ويذكر هواه ولا ينساه ، ويهفو ولا يلهو ، فيراه الناس كئيباً حزيناً ، ثم يراهم يحسبونه مثلهم — ساعة وكل شيء يزول ...

ساعة وكل شيء يزول ! فيعجب ثم يضطرب بل ينتفض ويرتعد ويتعد قليلا ... ثم يعود ، فلا يراه أحد كئيباً حزيناً ، فقد خجل أن يكون مثلهم ، وهو ... هو الكئيب الحزين ... مدخل الصومعة ولكنه يسير بها في المعمعة ...

راشد رستم